الأنباء
الجمعة 21 يونيو 2013

للتواصل

الإيمان صفحة اسبوعية تصدر كل يوم جمعة

- لمقترحاتكم وآرائكم يرجى التواصل معنا عبر الايميل: Lailaelshafie1@hotmail.com
- يرجى مراعاة عدم إلقاء الجريدة في سلة المهملات لما تحتويه من آيات قرآنية.

من إعداد: ليلى الشافعي

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

الزنى بزوجة الأخ

شاب ارتكب جريمة الزنى مع زوجة أخيه الكبير، بعد أن تكونت علاقة بينه وبين زوجة الأخ، حيث كان يقضي لها بعض حوائجها ثم تطور الموضوع إلى الزنى. ولقد اعترف بهذه الجريمة، ولكن زوجة الأخ انكرت أن يكون هذا قد حدث منها، فما حكم الشرع في هذه المسألة؟

د.عجيل النشمي

مما لاشك فيه أن جريمة الزنى من الكبائر، وهي جريمة اجتماعية تمس الأسرة والمجتمع، وان ما حدث بين الأخ الصغير مع زوجة أخيه الكبير إن صح، إنما هو من التساهل في أمور يظن الطرفان أنها بسيطة وجائزة، من المحادثة في غيبة الزوج، ثم من القيام بشؤون زوجة الأخ، وإلى الخلوة المحرمة، وإلى وقوع المحظور. وقد حذر النبي ﷺ من أخي الزوج بخاصة وهو الحمو فقال «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو. قال: الحمو الموات» (البخاري 330/9 ومسلم 1711/4).

وإذا كان أخو الزوج قد اعترف من نفسه وهو بكامل عقله فإنه يؤخذ بإقراره، لأن مما يثبت به الزنى الإقرار، فإذا أقر أربع مرات عند أبي حنيفة وأحمد، أو مرة واحدة عند مالك والشافعي ثبت في حقه الزنى، على أن يتريث في قبول قوله وإقراره، بعد أن يفصل حقيقة الفعل بحيث ترتفع أي شبهة، لأن النبي ﷺ حين جاءه ماعز يعترف بالزنى، سأل النبي ﷺ هل به جنون، أو هو شرب خمرا، وأمر أن يشم رائحته، وجعل يستفسره عن الزنى فقال: لعلك قبلت أو غمزت، وفي رواية: هل ضاجعتها قال: نعم قال: فهل باشرتها؟ قال: نعم، قال: هل جامعتها؟ قال: نعم، وفي رواية: دخل ذلك منك في ذلك منها؟ قال: نعم، قال وكما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر قال نعم، قال أتدرى ما الزنى؟ قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا، فلا بد أن يفصل الزاني لكم الفعل، وتتأكدوا من أنه بالغ أو غير بالغ، فإذا كان بالغا، فلا بد أن نعرف هل هو متزوج أم لا. فإن كان غير متزوج فإن عقوبته في الشرع الجلد مائة جلدة لقوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ـ النور: 2) ويضاف لهذه العقوبة عقوبة أخرى وهو التغريب عند جمهور الفقهاء ـ عدا الحنفية ـ لقول النبي ﷺ: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والتغريب هو الإبعاد عن البلد، وهو خاص بالذكر أما المرأة فإنها لا تبعد، كما قال المالكية، ويمكن أن يكون التغريب هو السجن في البلد أو المكان الذي يبعد إليه وهذا رأى الحنفية والمالكية.

وإذا كان هذا الشاب الزاني متزوجا فعقوبته الجلد والرجم حتى الموت، ودليله قول النبي ﷺ: خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة (مسلم)، وأما بالنسبة لاعتراف أخي الزوج بارتكاب جريمة الزنى، فإنه، كما سبق يؤخذ بهذا الإقرار بعد استيفاء ما سبق من أجل التأكد من تمام الجريمة، وهذا الإقرار يخصه ولا يتعداه إلى غيره، فالمرأة إذا أنكرت فإنها لا تعتبر زانية، بمعنى لا توقع عليها العقوبة بإقرار الزاني وحده، فإذا اعترفت أخذت باعترافها لا باعتراف الطرف الآخر، لما ورد أن رجلا جاء الرسول ﷺ فأقر عنده أنه زنا بامرأة سماها، فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فسألها عن ذلك فأنكرت أن تكون زنت فجلده الحد وتركه (أبو داود 4/ 611)، لذلك لو أنه اعترف بالزنى بامرأة ولم تعرف بذاتها، فانه يؤخذ باعترافه، لأن الإقرار كما قلنا حجة في حق المقر قاصرة عليه.

إبر الكولاجين والبوتوكس

ما حكم استخدام ابر الكولاجين والبوتوكس المؤقتة المفعول حيث انني متزوجة ولا أقصد التدليس؟ الحكم مبني على الغرض والظرف، فإذا كان الغرض إعادة العضو الى سابق عهده أو قريبا منه مثل ترهل البطن بعد تكرر الولادات وكبر السن أو تجاعيد الوجه لكبر السن، خاصة إذا كان ذلك برضا الزوج للمتزوجة، أما اذا كان ذلك لمزيد من التجمل وكان العضو كالوجه والأنف طبيعيا فلا يجوز.

الولادة القيصرية من دون دم

أنا امرأة ولدت بعملية قيصرية ونزل دم من مكان الجرح، فكيف يكون النفاس؟ نص الفقهاء على أنه إذا خلت الولادة عن دم، بأن خرج الولد جافا فهي طاهر لا نفاس لها، لأن النفاس هو الدم، ولم يوجد.

وفي هذا قال الحنفية إن المرأة إذا ولدت ولم تر دما لا تكون نفساء، ولا يلزمها إلا الوضوء، ويلزمها الغسل احتياطا، لأن الولادة لا تخلو ظاهرا عن قليل دم، كما نص الحنفية على أنه إذا ولدت من سرتها ـ مثلا ـ وسال منها دم لا تكون نفساء، بل هي صاحبة جرح ما لم يسل من فرجها، لكن يتعلق بالولد سائر أحكام الولادة.

وفي وجوب الغسل في حال السؤال: يرى أغلب الفقهاء عدم وجوب الغسل ولكن كما قال المالكية يندب الغسل.

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

المسباح: أقبح أنواع الاختلاف وأعسره علاجاً وأشده فتكاً بالأمة أن يكون عن هوى وشهوة

د. ناظم المسباح

د. محمد الحمود النجدي

الداعية حاي الحاي

التفرق أمر مذموم ليس من هدي الاسلام، اما وحدة الصف واتفاق الكلمة فهما من المقاصد الشرعية ومن لوازم وضروريات الاخوة الايمانية التي امر الله بها. حول الخلاف وضوابطه الشرعية يتحدث العلماء، حيث أكد د.ناظم المسباح ان الاختلاف بين الناس قائم مادامت تتفاوت عقولهم ومداركهم وطبائعهم واجناسهم، وهو من لوزام غير المعصومين، فالمعصوم هو رسول الله ﷺ وما دون ذلك واقع في الخطأ لا محالة، مشيرا الى ان الاختلاف اما ان يكون عن هوى وشهوة، قال تعالى: (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم)، وهذا اقبح انواع الاختلاف واعسره علاجا واشده فتكا بالامة، واما ان يكون مبنيا على علم وانصاف ومعرفة وارادة بيان الحق من خلاله، فهذا الخلاف سائغ لا غبار عليه، وهو على وجه العموم واجب عقلا، سائغ شرعا، وانما قلنا سائغ شرعا لان الاصل هو الاتفاق وعدم الخلاف قال تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)، وفي صحيح البخاري ان النبي ﷺ قال: «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

النجدي: الصحابة لم يحدث منهم افتراق ولا بدع وكانوا يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه

الحاي: الاختلاف ذمّه الله عز وجل ورسوله ويقتل الأخوة ويسبب الهلاك ويغير القلوب

ضوابط

وعن ضوابط الخلاف قال المسباح: ان الخلاف لابد ان ينضبط بضوابط الشرع الحنيف، فقد امر الله تعالى بانصاف المخالف والعدل في حقه فقال تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، ومن المقرر في الشريعة قاعدة الموازنة بين الحسنات والسيئات وان زلة الانسان تغمر في حسناته ان كثرت ولاسيما اذا كان من اهل العلم والاجتهاد والفصل.

ضرورة التثبت

واضاف: ولقد امر الله عز وجل بالتثبت في تلقي الاخبار حتى لا ينشأ الخلاف بين اثنين بناء على خبر كاذب فتصدر الاحكام المسبقة وتنطلق الردود وتوغر الصدور، وعندئذ لا مجال للحوار، قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين).

أدب الخلاف

وعن كريم الآداب عند الخلاف قال د.المسباح: الخضوع للحق حتى ولو كان على لسان المخالف، ولا يخضع للحق الا من كان قاصدا للحق عند مبدأ الخلاف، اما من يبني خلافه على شهوة وهوى فلا يكفيه بيان الحق، وكما قيل: صاحب الحق يكفيه دليل، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل، ومن جميل ما يؤثر عن الامام الشافعي انه قال: ما ناظرت احدا الا قلت: اللهم اجر الحق على قلبه ولسانه فإن كان الحق معي اتبعني، وان كان الحق معه اتبعته.

أهل الفضل

واكد د.المسباح على ضرورة تدخل اهل الفضل والعلم للاصلاح بين المختلفين والمتخاصمين وتقريب وجهات النظر وتأليف القلوب، فما ماتت أمة يحيا فيها المصلحون الناصحون، فإن هم سكتوا ماتوا وماتت الامة، قال تعالى: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) وقال رسول الله ﷺ: «الا اخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا اقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»، أسأل الله تعالى ان يجمع شمل الامة على كلمة سواء وان يصرف عنها الفتن ما ظهر منها وما بطن، انه ولي ذلك، فنعم المولى ونعم النصير.

الاعتصام بالله

ويؤكد د.محمد الحمود النجدي ان اعتصام اهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة والمحافظة على الجماعة والائتلاف من اهم اركان منهجهم المبارك قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون).

وقال ابن جرير الطبري: «يريد بذلك تعالى ذكره، وتمسكوا بدين الله الذي امركم به وعهده اليكم في كتاب اليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لامر الله»، وروى ابن جرير الطبري بأسانيده الى ابن مسعود ﷺ انه قال في تفسير «حبل الله»: انه «الجماعة»، وذكر ابن جرير اقوالا اخرى عن السلف في تفسير معنى حبل الله، منها: القرآن والاخلاص لله وحده والاسلام، وقال الشوكاني في الآية: امر الله ان يجتمعوا على التمسك بدين الاسلام او بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين.

اجتماع أهل السنة

وبين د.النجدي ضوابط اجتماع اهل السنة حين يجتمعون ويدعون الى الاجتماع يضبطون ذلك بضابطين هما: اولا ان يكون الاجتماع على كلمة الحق وهو ما جاءت به نصوص القرآن والسنة بفهم سلف الامة.

ضوابط الخلاف

وعن ضوابط الخلاف فقال د.النجدي: بدون الاجتماع على كلمة الحق والتقيد به لا يكون اجتماع اصلا وذلك ان الباطل وأهله في اختلاف عظيم، اذا هو جمع الدين كله علما وعملا ونتيجته الاتفاق والوحدة والقوة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: ان سبب الاجتماع والالفة جمع الدين والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما امر به باطنا وظاهرا ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه، فإنهم اذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة الله بفعل لم يأمر الله به من اعتقاد أو قول او العمل عمل، فلو كان القول او العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته، وقال ايضا: فمن ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء واذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا واذا اجتمعوا صلحوا وملكوا فان الجماعة رحمة والفرقة عذاب، فاهل السنة مستمسكون بالكتاب والسنة وفهم السلف لهما، والجماعة المؤمنة ملتزمون بأصول الكتاب والسنة والاجماع، يبعدون عن الاحتجاج بالمتشابهات التي تفرق الجمع وتشتت الشمل لان الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة، وقال شيخ الاسلام: «والبدعة مقرونة بالفرقة كما ان السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة كما يقال: أهل البدعة والفرقة».

الاختلاف

وعن الامر الثاني قال د.النجدي: هو مراعاة ضوابط الاختلاف، وقد امر الله تعالى بالاجتماع والاعتصام فقد حذر ونهى عن الافتراق والابتداع.

قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب)، وقال تعالى: (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

أهل السنة

وبين انه اذا وقع خلاف بين اهل السنة فانه يقع منضبطا بضوابطه الشرعية التي من اهمها الاحتكام الى الكتاب والسنة بفهم سلف الامة ثم الحرص على الوحدة والائتلاف وصلاح ذات البين وجمع الكلمة.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم اذا تنازعوا في الأمر اتبعوا امر الله في قوله: (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا)، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة واخوة الدين.

الصحابة

وهذا الله مشاهد ملموس فيما وقع الخلاف فيه بين أهل السنة فقد وقع الخلاف بين الصحابة انفسهم حول بعض مسائل العقيدة ولكن لم تكن هذه المسائل من الأمهات والكليات في هذا الباب.

أمثلة

وبين د.النجدي أمثلة على ذلك ان الصحابة اختلفوا في موت الرسول ﷺ وتم حسم النزاع بموقف أبي بكر بقوله: «من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت»، وتلا قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم) وبعد هذا النزاع سلم الجميع لقضاء الله سبحانه وتعالى، ثم حدثت قصة السقيفة وتنازع الصحابة فيمن يخلف رسول الله ﷺ في امامة المسلمين وانتهى النزاع واجتمعت الكلمة على أبي بكر ﷺ، ثم اختلفوا في جيش اسامة هل يسيرونه ام لا؟ وانتهى النزاع بعزم ابي بكر أمير المؤمنين ﷺ على انفاذه، ثم تنازعوا في مانعي الزكاة من اهل الردة، وحسن النزاع بحزم أبي بكر ﷺ على قتالهم ورجوع بقية الصحابة الذين كانوا خالفوا الى قوله وموافقتهم له.

وزاد: ومن ذلك اختلافهم في الفروع والاحكام الفقهية العملية، وهو كثير مشهور، ومع ذلك فان الصحابة لم يحدث منهم افتراق ولا بدع ولم يحدث من احد منهم ان قال ببدعة او فارق الجماعة ولم يكن احد منهم من أهل البدع المشهودة، كالخوارج والروافض والقدرية والمرجئة، فضلا عن الجهمية والمعتزلة واهل الكلام بل قد حدثوا من بعدهم.

واكد ان الصحابة كان يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه، كما ان الصحابة لم يكفر احد منهم الاخر، بل كان بعضهم يعذر بعضا فيما اختلفوا فيه، ولما حدثت الفتنة وانحاز بعض الصحابة الى علي ﷺ واخرون الى معاوية ﷺ لم يوجب ذلك عداوة بينهم ولم يكفر بعضهم بعضا، ولم يكفر احد منهم مخالفيه لا من الصحابة ولا من غيرهم.

جمع الكلمة

ولفت الى ان اهل السنة كانوا احرص الناس على جمع الكلمة ووحدة الصف واصلاح ذات البين، قال شيخ الاسلام ابن تيمية، رحمه الله: «تعلمون ان من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البيت، فان الله تعالى يقول: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم). نسأل الله تعالى ان يصلح اقوالنا واعمالنا ويؤلف ذات بيننا، انه خير مسؤول، والله أعلم.

ذمّه الله

أما الشيخ حاي الحاي، فأكد ان الله عز وجل قد ذم الاختلاف حيث قال سبحانه: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال النبي ﷺ: «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، وقال ﷺ: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب»، وصح عن عبدالله بن مسعود ﷺ انه قال عندما اتم الصلاة الرباعية خلف أمير المؤمنين عثمان ﷺ بدلا من ركعتين، قال لما سئل: «الخلاف شر».

وكان عمر ﷺ ينهى عن الخلاف، فحين اختلف ابي بن كعب وابن مسعود في الصلاة في الثوب الواحد، اذ قال ابي: الصلاة في الثوب الواحد جميل وحسن، وقال ابن مسعود: انما كان ذلك والثياب قليلة، فخرج عمر مغضبا، فقال: اختلف رجلان من اصحاب رسول الله ممن ينظر اليه ويؤخذ عنه، وقد صدق أُبَي، ولم يألُ ابن مسعود، ولكني لا اسمع احدا يختلف فيه بعد مقامي هذا الا فعلت به كذا وكذا.

وقال الامام مالك: «ومن ذا الذي لا يخطئ».

وقال شيخ الاسلام: «وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين والذين يقولون بان المجتهد المخطئ آثم فهو اتباع بشر المريسي وكثير من المعتزلة البغدادين والقدرية، لان الخطأ والإثم عندهم متلازمة»، فالاختلاف يقتل الاخوة ويكون سببا للهلاك ويغير القلوب

من معالم الاختلاف بين الأئمة وآدابه

لقد اختلف الأئمة في كثير من الأمور الاجتهادية، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم، وهم جميعا على الهدى ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق، فقد كان الواحد منهم يبذل جهده وما في وسعه ولا هدف له إلا إصابة الحق وإرضاء الله جل شأنه، ولذلك فإن أهل العلم في سائر الاعصار كانوا يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ما داموا مؤهلين، فيصوبون المصيب، ويستغفرون للمخطئ، ويحسنون الظن بالجميع، ويسلمون بقضاء القضاة على أي مذهب كانوا، ويعمل القضاة بخلاف مذاهبهم عند الحاجة من غير إحساس بالحرج أو انطواء على قول بعينه، فالكل يستقي من ذلك النبع وإن اختلفت الدلائل، وكثيرا ما يصدون اختياراتهم بنحو قولهم: «هذا أحوط» أو «أحسن» أو «هذا ما ينبغي» أو «نكره هذا» أو «لا يعجبني» فلا تضييق ولا اتهام، ولا حجر على رأي له من النص مستند، بل يسر وسهولة وانفتاح على الناس لتيسير أمورهم.

أبوحنيفة ومالك

رغم الاختلاف الكبير بين أبي حنيفة ومالك رحمهما الله، وتباين الأسس التي يعتمدها كل منهما فيما يخص مذهبه، ولكن هذا لم يمنع، رغم فارق السن التي بينهما، أن يجل الواحد منهما صاحبه، وأن يكون معه على جانب كبير من الأدب مع اختلاف مناحيهما في الفقه، أخرج القاضي عياض في «المدارك» قال: قال الليث بن سعد: لقيت مالكا في المدينة، فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري، قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة، وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق، ونقد تام.

محمد بن الحسن ومالك

يعتبر محمد بن الحسن من أبرز أصحاب أبي حنيفة، وهو مدون مذهبه، رحل إلى مالك ولازمه ثلاثة سنين، وسمع منه الموطأ، ويتذاكر الإمامان محمد بن الحسن والشافعي يوما، فيقول محمد: صاحبنا (يريد أبا حنيفة) أعلم من صاحبكم (أي مالك) وما كان لصاحبنا أن يسكت وما كان لصاحبكم أن يتكلم ـ كأنه يستثير الإمام الشافعي بذلك ـ فيقول الإمام الشافعي:

نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله ﷺ: مالك أو أبوحنيفة؟ فيقول محمد: مالك، ولكن صاحبنا أقيس، يقول الشافعي: قلت نعم، ومالك أعلم بكتاب الله من أبي حنيفة، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام، فيسكت الإمام محمد بن الحسن.

الشافعي ومحمد بن الحسن

يقول الإمام الشافعي: ذاكرت محمد بن الحسن يوما، فدار بيني وبينه كلام واختلاف، حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدر، وتتقطع أزراره.

ويقول محمد بن الحسن: إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي، فقيل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع.

تلك هي بعض نماذج أدب الاختلاف، من آداب علماء الأمة، نستنبط منها: أن خلف الأمة في قرون الخير كان يسير حذو السلف، والكل استقى من أدب النبوة، ولم يكن أدب السلف الصالح يقتصر على تجنب التجريح والتشنيع، بل كان من الآداب الشائعة في ذلك الجيل من العلماء التثبت في أخذ العلم واجتناب الخوض فيما لا علم لهم به، والحرص على تجنب الفتيا خوفا من الوقوع في الخطأ. قال صاحب القوت: وروينا عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت في هذا المسجد (مسجد رسول الله ﷺ) مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخر: كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أول مرة.

وقد ارتفع هؤلاء الرجال فوق مشاعر الإحساس بالغضاضة، فقد يتوقف أحدهم أمام مسألة، وذكر أن قومه أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر، قال مالك: فأخبر الذي أرسلك أني لا علم لي بها. قال الرجل: ومن يعلمها؟ قال مالك: من علمه الله، قالت الملائكة: (لا علم إلا ما علمتنا) «البقرة: 32».

وروي عن مالك أيضا أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري».

وعن خالد بن خداش قال: قدمت على مالك من العراق بأربعين مسألة فسألته عنها فما أجابني منها إلا في خمس مسائل.

وكان لبن عجلان يقول: إذا أخطأ العالم قول (لا أدري) أصيبت مقاتله.

وروي عن مالك، عن عبدالله بن يزيد بن هرمز قال: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول (لا أدري) حتى يكون ذلك في أيديهم أصلا يفزعون إليه، فإذا سئل أحد عما لا يدري قال: لا أدري.

وقال أبوعمر بن عبدالبر (توفي سنة 463): صح عن أبي الدرداء أنه قال: لا أدري نصف العلم.

مالك وابن عيينة

كان ابن عيينة (137) قرين مالك وندا له، يقول الإمام الشافعي: «ومالك وابن عيينة القرينان، ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز (138)»، ومع ذلك فقد روي: أن ابن عيينة ذكر مرة حديثا فقيل له: إن مالكا يخالفك في هذا الحديث، فقال القائل، أتقرنني بمالك؟ ما أنا ومالك إلا كما قال جرير:

ولبن اللبون إذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

ويروى لسفيان بن عيينة قول رسول الله ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة»، فيقال لسفيان: من هو؟ فيقول: إنه مالك بن أنس، ويقول: «كان لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا، ولا يحمل الحديث إلا عن ثقاة الناس، وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك بن أنس».

مالك والشافعي

يقول الإمام الشافعي: مالك بن أنس معلمي، وعنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد آمن علي من مالك بن أنس، وكان يقول: إذا جاءك الحديث من مالك فشد به يديك، كان مالك بن أنس إذا شك في الحديث طرحه كله.

أحمد بن حنبل ومالك

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكبر في قلتي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إلي، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: هذا ضعه مع أهل زمانه، وسئل عن رجل يريد أن يحفظ حديث رجل واحد ـ بعينه ـ قيل له: حديث من ترى له؟ قال: يحفظ حديث مالك.